استراتجية تدرج المعنى في القرآن في ظل الإضراب
(بل، أم و أو أنموذجاً)

الدكتور بهمن هاديلو (الكاتب المسؤول)
أستاذ مساعد، جامعة علوم القرآن الكريم ومعارفه، قم، إيران
hadilo@quran.ac.ir
الدكتور مجتبى محمدي مزرعه شاهي
أستاذ مساعد، جامعة علوم القرآن الكريم ومعارفه، قم، إيران
mazraehshahi@quran.ac.ir

The strategy of incorporating meaning in the Qur'an in light of the strike (bal, am, and or as an example)

Dr.Bahman Hadilo (author in charge)
Assistant Professor of the Holy Quran University of Sciences and Education
Dr. Mojtaba Mohammadi Mazraeh Shahi
Assistant Professor of the Holy Quran University of Sciences and Education

الملخص:-

بما أنّ في القرآن الكريم تختلف المواقف و المخاطبون فلا يعبر عن مواقفه تجاه مخاطبيه المتعددة على حد سواء و بشكل متساوٍ بل إنّ الخطاب فيه أحيانا يكون ناعماً و أحيانا شديداً وفقًا للموضوع. و يستخدم استراتيجيات مختلفة ليكون له تأثير أكبر على الجمهور. التدرج هو أحد أكثر الاستراتيجيات فعاليةحيث يلعب دورًا نشطًا في أبعاد مختلفة ومن تلك الأبعاد هو التعبير عن المعاني التي تصبح شديدة في المواضع التي تقتضيها. و أسلوب الإضراب من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم كبنية لغوية لتحقيق هذا الهدف. و قد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج التحليلي الوصفي، فقامت بدراسة النماذج القرآنية وملاحظة طريق الإضراب الانتقالي في التعبير عن المعاني المتدرجة. أيضاً تمّ هذا البحث بهدف إظهار التطبيق العملي لأسلوب الإضراب و استبعاده من المناقشات النظرية و الكشف عن آلياته التي أُستخدمت في القرآن و يسعى أيضًا إلى الإجابة عن سؤالين أساسيين: أولاً، ما هو تأثير أسلوب الإضراب على تدرج المعاني؟ ثانياً، كيف تسمو المعاني بآليات الإضراب و في أي مجال استخدم القرآن تلك الآليات؟حسب الدراسة التي أجريت في هذه الدراسة يمكننا أن نشير إلى أنّ البحث كشف العلاقة العميقة و الصلة الوطيدة بين القضايا النحوية و القضايا الدلالية و البلاغية. يرى البحث بأنّ القرآن الكريم استثمر أسلوب الإضراب الإنتقالي في تدرج المعنى و له دور بنّاء و محوريّ في ترقي المعنى و تدرجه و حسب الإحصاء الذي تم إجراؤه حول حرف بل، فقد وجد أنّها توحي دلالة الإضراب الإنتقالي التدريجي في اثنين و تسعين موضعا من إجمالي ستة وعشرين ومئة موضعا في القرآن الكريم ومعظم استعمالها تكون في توبيخ الكافرين و المنكرين، و أيضاً بدا للبحث بأنّ أم المنقطعة في استخدامها كالإضراب الإنتقالي حقق تشديد المعنى تدريجيا من الشنيع إلى الأشنع و من الفضيع إلى الأفضع وكثيراً ما استعملت في توبيخ المنكرين وتقبيحهم. وأمّا بالنسبة إلى أو فقد لمسنا أنّ التعبير القرآني خاطب بها في معظم ورودها المؤمنين.

الكلمات المفتاحية: القرآن، الإستراتجية، تدرج المعنى، الإضراب.

Abstract:-

Since in the Holy Qur'an the positions and the addressees differ, it does not express its positions in front of its multiple addressees equally and equally, but the discourse in it is sometimes soft and sometimes severe according to the topic. It uses different strategies to have a greater impact on the audience. Gradation is one of the most effective strategies, as it plays an active role in different dimensions, and one of those dimensions is the expression of meanings that become intense in the places where they are required. The turning away method is one of the methods used by the Holy Quran as a linguistic structure to achieve this goal. This study relied on the descriptive analytical approach, so it studied the Qur'anic models and observed the way of the transitional turning away in expressing the gradual meanings. This research was also carried out with the aim of showing the practical application of the striking method, excluding it from theoretical discussions, and revealing its mechanisms that were used in the Qur'an. It also seeks to answer two basic questions: First, what is the effect of the striking method on the gradation of meanings? Secondly, how do the meanings transcend the strike mechanisms and in what field did the Qur'an use these mechanisms? According to the study conducted in this study, we can point out that the research revealed the deep relationship and the close link between grammatical issues and semantic and rhetorical issues. The research finds that the Holy Qur'an invested the method of transitional turning away in the gradation of meaning and it has a constructive and pivotal role in the progression and gradation of meaning. Twenty-hundred places in the Holy Qur'an, and most of its use is in rebuking the unbelievers and the deniers, and also it seemed to the research that the mother of the uninterrupted in its use as the transitional turning away achieved a gradual tightening of the meaning from the heinous to the ugliest and from the horrible to the most horrible, and it was often used to rebuke the deniers and make them look ugly.. And as for me or we have sensed that the Qur'anic expression addressed it in most of its occurrences to the believers.

Keywords: The Qur'an, strategy, promotion of meaning, the turning away

١. المقدمة:ـ

الدارس في القرآن الكريم يجد أنّ هذا الكتاب استثمر في خطابه استراتيجيات متعددة لكي يستطيع أن ينفذ في نفس مخاطبيه و يقنعهم و من تلك الإستراتيجيات هي إستراتيجية التدرج. التدرج كسنّةٍ من سنن الله سنة شائعة في المجالات المختلفة. ومن المجالات التي استثمر القرآن الكريم سنة التدرج هو مجال خطابه لمتلقيه. فلأهمية التدرج في التأثير على الآخرين، قمنا بتسليط الضوء على منهج التدرج في الخطاب القرآني، وكنّا نودّ أن نستدعي أهم الوسائل التي شكلت هذا المنهج في القرآن الكريم، لكنّنا بما أنّ استدعاء كل الوسائل التي تشكل هذا المنهج يستغرق نقاشا طوالا نكتفي بواحدة منها و هو الإضراب الذي له حضورٌ شائع بنوعيه الإبطالي و الإنتقالي في النص القرآني. قسّمنا البحث إلى القسمين و تناولنا في القسم الأول الجانب النظري للبحث و قمنا فيه بتعريف التدرج و الإضراب و أهمية التدرج... ثم عرجنا إلى القسم الثاني و عالجنا فيه الجانب التطبيقي و اتينا فيه بنماذج متعددة من الآيات التي تشتمل آليات الإضراب. أيضا جديرٌ بالذكر بأنّنا قمنا بإحصاء حرف بل في القرآن الكريم و سردنا انواعها في جدول، أما بالنسبة إلى حرفي أم و أو فبسبب الإختلاف الكبير بين المفسرين و النحويين في دلالتهما ما قمنا بإحصائهما و اكتفينا بإتيان النماذج منهما و تطرقنا إلى دلالتهما و دورهما في تدرج المعاني و ترقيها من خلال الآيات التي وظّفتهما كأسلوب الإضراب الإنتقالي التدريجي.

أسئلة البحث

بناءً على ما سبق، تسعى هذه المقالة للإجابة على السؤالين التاليين:

ماهو دور الإضراب في التعبير عن المعاني المتدرجة؟

كيف تسمو المعاني بآليات الإضراب و في أي مجال استخدم القرآن تلك الآليات؟

١-١.خلفية البحث:

لقد سمّيتُ هذا البحث«استراجية تدرج المعنى في القرآن في ظل الإضراب» و لم أجد دراسة علمية متخصصة تناولت أسلوب تدرج المعاني في ظل الإضراب؛ بل إن إفراد هذا الأسلوب بدراسة علمية تطبيقية في القرآن كله يعد نهجا جديداً، و ممن اطلعت على أبحاثهم

في هذا المقام صلاح الدين الزعبلاوي الذي له مقالٌ مطبوعٌ في مجلة التراث العربي عام١٩٨٢ للميلاد في العدد ٨ من الصفحة ٣١ إلى ٥١، تحت عنوان«تدرج المعاني». يتطرق الكاتب فيه دلالات اللفظ من طريق المجاز والنقل ومراده من النقل هو المجاز الراجح. ولم يدرس تدرج المعاني في معناه الوضعي ولم يقتصر بحثه على القرآن.

ومن الدراسات التي تجدر بالإشارة دراسة الدكتور سليمان الهنداوي بعنوان «أسلوب الترقي و التدرج في القرآن» المنشورة في مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة عام ١٤٠٣، فيالعدد ٣ و هي دراسة فيها جدةٌ و نوع شمول و شيء من الإستقصاء لأنواع الترقيو التدرج في القرآن؛ بدأها بالترقي و التدرج في الأمثال، ثم من الأدنى إلى الأعلى... و التدرج من الفضول إلى الفاضل و التدرج في صفات المتقين... ونحو ذلك مما يعد جديدا مفيدا. و لكنه لم يتناول أسلوبا معيناً ينتهي استخدامه إلى التدرج في المعنى.

٢. الجانب النظري

قبل أن نخوض في صلب الموضوع علينا أن نتعرف التدرج و الإضراب و بعض الآراء التي قُدمت حولهما مِن قِبل العلماء.

٢-١.التدرج لغة و إصطلاحاً

بالنظر في معاجم اللغة العربية نجد أنَّ كلمة (درج) قد جاءت بمعنى المشي، والمضي فيه. ففي معجم مقاييس اللغة: (دَرَج) الدال والراء والجيم أصل واحد يدل على مضي الشيء، والمضي فيه، من ذلك قولهم: درج الشيء، إذا مضى لسبيله (ابن فارس، ١٤٠٤: ٢٧٥/٢).

وفي لسان العرب: «يقال:درَّجت العليل تدريجاً، إذا أطعمته شيئاً قليلاً، حتى يتدرج إلى غاية أكله، كما كان قبل العلة درجةً درجةً» (ابن منظور، ١٤١٤: ٢/ ٢٦٧).

ومن خلال ماسبق نعلم أن اللفظ جاء فعلاً مجرداً، ومزيداً بالتضعيف، وجاء اسماً، ومع الاختلاف اليسير في معاني الكلمات، إلا أنها تدل على المشي والحركة الهينة، والصعود في المراتب.

لا يختلف معنى التدرج في الاصطلاح عن معناه في اللغة، فجماع دلالات التدرج: أنه

أخذ الأمر شيئًا فشيئًا، لا دفعة واحدة.

أو: هو الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى أعلى منها، وأرفع في الحس، أو في المعنى، أو في كليهما، وفى ضوء هذا المعنى قيل لمنازل الجنة: درجات من جهة أن بعضها يرتفع فوق بعض أخذًا من الدرجة التي تعني الرفعة والمنزلة.

والتدرج في الدين يعني: الدخول فيه شيئًا فشيئًا، رويدًا رويدًا، واستدراج الناس إليه درجة درجة.

المعنى الإصطلاحي للتدرّج لا يبتعد عن المعنى اللغوي بحيث قيل في تعريفه بأن التدرج التقدم بالمدعو شيئاً فشيئاً للبلوغ به إلى غاية ما طلب منه وفق طرق مشروعة مخصوصة (المطلق، ١٤١٧: ١٢).

وعرّفه الدكتور آل عرعور بقوله: «هو الإنتقال بالمدعو من الأسهل إلى الأصعب، ومن كلية إلى أخرى، ومن الكليات إلى الجزئيات، ومن الدعوة النظرية إلى الدعوة العملية التطبيقية، ومن الإيمان إلى الأعمال، ومن التوحيد إلى العبادات. والإنتقال به في باب المحرمات، من محرم إلى آخر، ومن تحريم الكبائر إلى تحريم الصغائر؛ حتى يصل المدعو إلى مرتبة التكيف مع كل توجيه، والانصياغ لكل أمر» (آل عرعور، ٢٠٠٥: ١٤٠).

كما نلاحظ أنّ كلا التعريفين موجه إلى التدرج في التشريع أكثر منه إلى التدرج في المعنى الذي هو مرادنا في هذه المقالة لذاك فإنّه يمكن تعريف التدرج في المعنى بأنّه الترقي في معنى الكلام أي الصعود درجة درجة من اللين و الملاطفة إلى الشدة و الغلظة في موضوع ما.

لم يكن للتدرج و الترقي مصطلح بلاغي مستقر مشهور عند أصحاب الدراسات البلاغية الذين عرف عنهم التأصيل و التقعيد في البحث البلاغي كعبد القاهر الجرجاني أو أبي يعقوب السكاكي، أو الخطيب القزويني، و إنما وردت إشارات عامة في مواضع متفرقة. و نبه عليه الزمخشري في الكشاف في مواضع تتعلق بالتقديم و الترقي من الأدنى إلى الأعلى، و هذا ظاهر في تفسيره للبسملة (الزمخشري، ١٤٠٧: ٢١٤/١) بل نص الزمخشري على أنَّ علم المعاني لا يقتضي غير أسلوب الترقي وورد ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾

(النساء/١٧٢) في تقديم ذكر المسيح على الملائكة (الزمخشري، ١٤٠٧: ٥٩٤/١).

كأنّي بالزمخشري من خلال فحوي ما تقدم عنه ينظر في ترتيب الأهم بالتقديم والأولى بالتأخير، بحيث يبني عليه الترقي في الإفادة الكامنة فيما يؤخر مما له علقة بالمعنى في المفردات المشتركة في معنى واحد بدليل أنّ كلامه عنه ورد في البسملة و آية النساء في مُفردين يلتقيان في معنى متقارب في حين أنّ المراد من التدرج و الترقي الذي يرمي إليه هذا البحث هو الإنتقال بالمعنى في تدرج دقيق عام إلى ذروته. و من أقرب المباحث البلاغيين لمعنى الترقي والتدرج في المعاني في سبيل إيفائها حقها مبحث «التخلّص» القائم على مراعاة الملائمة بين المعاني و الربط فيما بينها، مع الأخذ في الحسبان حالة المتلقي النفسية، الذي يُهَيَّأ في تهيَّأ للإنتقال من معنى إلى آخر في لطف خفيٍّ يدركه الذكيّ (التفتازاني، ١٩٩٢: ٤/ ٥٣٤).

وقد أحسن أحد المتأخرين في حديثه عن الإنتقال بين المعاني المتقاربة عندما قال: «و من الإنتقال البديع ما يشبه الإنتقال من فرع من فروع الشجرة إلى فرع آخر منها، بينهما ملامَسةٌ أو تراكب أو إلى فرع آخر من شجرة أخرى تلامست أغصانها أو تداخلت و تراكبت» (حبنكة الميداني، ١٩٩٦: ٥٦١). فهو انتقال بين المعاني على سبيل تصعيدها وتناسل ألطاف المعاني في أثناء ذلك للوصول إلى ذروتها لتحقق الغاية من إيرادها، و هذا هو الذي يرمي هذا البحث إلى إثباته و تقرير أمره في المعنى الواحد و ليس المراد الإنتقال بين المعاني المستقلة.

٢-٢.أهمية التدرج

اهمية التدرج تكمن في نقلة شعورية و فكرية، تنقل النفس لتوقظ قواها الداخلية بحيث تشعر باللذّة والنشوة، وفي ذلك إهتمام من المبدع بالمتلقي، وجذب نفسه الشاعرة إليه: «وما دام الأديبُ في حاجةٍ إلى جذبِ النفسِ والإستيلاءِ على أحاسيسها ومشاعرها ليضمنَ استجابتها له فيما سيدفعه إليها من انفعالاته و أحاسيسه، ووجدانه وإدراكه فإنَّ الأديب الماهر من يتوصّلُ إلى ذلك باستثارة النفسِ بحيث تندفعُ إليه اندفاعاً ذاتياً نابعاً من كيانها، وتظلُّ تدور معه في فلكه حتى ينتهي من مداره دونَ أن تملَّ سيرَهُ والتحليقَ في مسراهُ» (منصور عبدالرحمن، ١٩٨٠: ٤٣٦). ففي الخروج يتجسّد الإهتمام بالمتلقي، و إثارته، لأنَّ نفسه تهتزّ كلما أحسّ بانتقال المبدع فجأة من المعنى الّذي كان فيه إلى معنى آخر جديد قد يكون مرتبطا بالمعنى الأوّل و هو ما ينبئ عن تأثير الهزّ على ذهن المتلقي(الثقفي، ٢٠٠٣: ٩٦).

٢-٣. الإضراب

هو من ضرب يضربه ضرباً، و ضرب في الأرض ضرباً و مضرباً بالفتح أي سار في ابتغاء الرزق و الإضراب «هو الإعراض عن الشيء بعد الإقبال عليه، نحو ضربتُ زيداً بل عمراً» (الجرجاني، ١٩٨٣: ٢٩) و هو نوعان الإضراب الإبطالي و الإضراب الإنتقالي وفرق عباس حسن بينهما إذ قال «فالإبطالي هو الذي يقتضي نفي الحكم السابق، في الكلام قبل «بل» و القطع بأنّه غير واقع، و مدعيه كاذب، و الإنصراف عنه واجب إلى حكم آخر يجيء بعدها. نحو الأجرام السماوية ثابتة، بل الأجرام السماوية متحركة. فالحرف«بل» بمعنى لا النافية أفاد الإضراب الإبطالي الذي يقتضي نفي الثبات و نفي عدم الحركة عن الأجسام السماوي؛ لأنَّ هذا الثبات أمر غير حاصلٍ، و من يدعيه كاذبٌ فكأنَّ المتكلم قال: الأجرام السماوية ثابتة. لا، فالأجرام السماوية متحركة و ليست ثابتة؛ فأبطل الحكم الأول و نفاه و عرض بعده حكماً جديداً... و الإنتقالي هو الذي يقتضي الإنتقال من غرض قبل الحرف: «بل» إلى غرض جديد بعدَه، مع إبقاء الحكم السابق على حاله، و عدم إلغاء ما يقتضيه. كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (الأعلى/١٤-١٦) (حسن، د.ت: ٦٢٣/٣)و أحرف الإضراب بل و أم (المرادي، ١٩٩٢: ٢٥٣/١)، و أو بمعنى بل على قول الفراء في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات/١٤٧) (الفراء، د.ت: ٧٢/١).

على الرغم من أنَّ الإضراب انقسم إلى نوعين أي الإبطالي والإنتقالي عند النحويين والبلاغيين، إلا أنه يجب أن ننتبه إلى هذه النقطة، بأن القرآن الكريم يختلف عن النصوص الأخرى ولا يمكن أن يكون فيه نوع الإبطالي من الإضراب و ذلك لأنه صدر من الّذي لا خطأ ولا نسيانَ في كلامه حتى يضرب عنه؛ و هذا ما دعا بعض العلماء إلى القول بأنَّ الإضراب انتقالياً فقط و لا وجود للإضراب الإبطالي و منهم ابن الحاجب و ابن المالك. لكنه بإمعان النظر في الآيات القرآنية نشاهد أنَّ الإضرابَ يوجد فيها بكلا نوعيه (الإبطالي والإنتقالي) فيها إلا أنّ الإبطال الوارد في القرآن ليس عن غلط أو نسيان بل هو لإبطال أقوال الكفرة هذا ما يؤيّده ابن قتيبة و يقول بعدم الغلط فيه، و كل ما في الأمر أن الغلط إنّما لحق كلام الكفرة فطما ادَّعوه كذباً و بهتاناً على الله (ابن قتيبة، ١٩٧٣: ٢٠٣). ألفينا

الإضراب الإنتقالي وروده في القرآن أكثر من ورود الإضراب الإبطالي، و المؤشر في كون الإضراب إبطالياً أو إنتقالياً هو مصدر القول إنه إن كان المقول عن الخلق كان ابطالياً و إن كان المقول عن الله كان الإضراب انتقالياً.

٣.الجانب التطبيقي

في البحث العلمي، على الرغم من أن المناقشة النظرية يمكن أن تقربنا من الهدف، إلا أنَّ دراسة الموضوع عملياً و تطبيق الأمثلة الموضوعية سيصل بنا إلى نتيجة كاملة. بناءً على هذا نتطرق هنا إلى نماذج تطبيقية تحت ثلاثة عناوين لكي نرى كيف يؤدي الإضراب إلى تدرج المعاني في القرآن الكريم.

٣-١.فاعلية بل في تدرج المعاني

تعدُّ بل من أشهر حروف الإضراب و معناها الرئيس الذي لايفارقه الإضراب، و يقع بعدها مفردٌ، و جملةٌ، و قد ينضم إلى الإضراب معانٍ أُخر (المرادي،١٩٧٦: ٢٥٣). و حسب دراستنا استخدمت في القرآن الكريم في ستة و عشرين و مئة موضعا و الدلالة التي أوحت بها بل في الكتاب العزيز كانت على الأغلب للإضراب الإنتقالي لما أنّها وردت في اثني و تسعين موضعاً بمعنى الإنتقال و في أربعة و ثلاثين موضعا بمعنى الإبطال. الذي يهمنا في هذا المقال هو الإضراب الإنتقالي لدوره في تدرج المعاني. لتوضيح الأمر، نقوم بتحليل بعض الأمثلة:

النموذج الأول:ـ

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (الشعراء٢٦/ ١٦٥- ١٦٦).

بل لإضراب الإنتقال من مقام الموعظة والإستدلال إلى مقام الذم تغلظاً للإنكار بعد لينه لأن شرف الرسالة يقتضي الإعلان بتغيير المنكر و الأخذ بأصرح مراتب الإعلام فإنّه إن استطاع بلسان غليظ الإنكار لا ينزل منه إلى لينه و إنه يبدي باللين فإن لم ينفع انتقل منه إلى ما هو أشد ولذلك انتقل لوط من قوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾ إلى قوله ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ وفي الآيتان بالجملة الإسمية من قوله ﴿أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ دون أن يقول: بل كنتم عادين، مبالغة في

تحقيق نسبة العدوان إليهم، و في جعل الخبر ﴿قَوْمٌ عَادُونَ﴾ دون اقتصار على ﴿عَادُونَ﴾ تنبيه على أن العدوان سجية فيهم حتى كأنَّه من مقدمات قوميتهم كما تقدم» (ابن عاشور،١٤٢٠: ١٨٦/١٩). و المعنى أنَّ هؤلاء متجاوزون عن حد الشهوة إذ زادوا على سائر الناس بل الحيوانات أو مفرطون في المعاصي، وفي هذا اتضح معنى الإضراب الذي هو إضراب انتقال من مقام إلى مقام. وهذا الترقي في المعنى وتدرجه يستفاد من حسن نظم المفردات والتركيب في هذه الآية إلى جانب بل الإضرابية التي لها دور محوري و بنّاء في تدرج المعنى.

النموذج الثاني:ـ

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ (القمر/٤٥-٤٦).

في معركة بدر الكبرى إذ رأى المشركون عدتهم و عددهم، فأخذتهم العزة بالإثم فكان قولهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ (القمر/٤٤)، فردَّ عليهم الله تعالى بقوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر/٤٥) و لم يكتف الله في هزيمتهم في الدنيا بل شرح مكانتهم في الآخرة بإستخدام بل فجيء بالإضراب الإنتقالي لينتقل من معنى إلى معنى آخر أي من عذاب شديد خسران المعركة و الهزيمة إلى ما هو أشد وهو عذاب الله في الآخرة. وتأكيداً لهذا الأمر فقد جاء في تفسير الميزان: «أَدْهى» اسم تفضيل من الدهاء وهو عظم البلية المنكرة التي ليس إلى التخلص منها سبيل، و«أَمَرّ» اسم تفضيل من المرارة ضد الحلاوة، وفي الآية إضراب عن إيعادهم بالانهزام والعذاب الدنيوي إلى إيعادهم بما سيجري عليهم في الساعة وقد أشير إلى نبئها في أول الأنباء الزاجرة، والكلام يفيد الترقي (الطباطبايي، ١٤١٧: ٨٤/١٩).

فقد سلك القرآن الكريم في هذه الآية مسلك الترقي والتدرج في الإنتقال من الأهون إلى الأغلظ بتوظيف بل الإضرابية. لما عبّر فيه مرارة العذاب تدريجيا وارتقى المعنى من العذاب الدنيوي الذي يمكن الخلاص عنه أو يسهل تحمله للإنسان إلى العذاب الأخروي الأمر المنكر الفظيع الذي لايهتدي إلى الخلاص عنه ويُعتبر العذاب الدنيوي من طلائعه.

النموذج الثالث:ـ

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ (الواقعة/٦٦-٦٧).

أي إننا مهلكون لهلاك أرزاقنا ثم اضرب عن ذلك منتقلا إلى أمر آخر هو أهم من

الأمر الأول لذا اضرب منتقلا إليه و هو إنهم محرومون من الرزق و الحرمان هذا نتيجة أعمالهم التي أردتهم و أهلكت أموالهم و منعتهم منها.

فقوله بَلْ نَحْنُ قوم مَحْرُومُونَ أي حرمنا رزقنا إضراب بذكر الأهم فان غرامة المال أسهل من حرمان الرزق المفضى إلى الهلاك. هكذا تدرج المعنى من الغرامة إلى الحرمان في ظل اسلوب الإضراب. فالإضراب هنا له دورٌ بارزٌ في نظم الآية و تركيبه و له دلالة خاصة به يؤدي إلى ترقي المعنى و تدرجه. فلو لم يكن هذا الإضراب مذكوراً في الآية لما تُستفاد منها هذه الدلالة. ومن ذلك: ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ (النمل/ ٦٦) قال الآلوسي: و قوله تعالى: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها إضراب و انتقال عن عدم علمهم بها إلى ما هو أفحش منه... و هو حيرتهم في ذلك أي بل هم في شك عظيم من نفس الآخرة و تحققها كمن تحير في أمر لا يجد عليه دليلا فضلا عن الأمور التي ستقع فيها، وقوله سبحانه: بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ إضراب وانتقال عن وصفهم بكونهم شاكين إلى وصفهم بما هو أفظع منه و هو كونهم عميا قد اختلت بصائرهم بالكلية بحيث لا يكادون يدركون طريق العلم بها والإضرابان من باب الترقي من الوصف بالفظيع إلى الوصف بالأفظع نحو ما تقدم و هو وجه حسن (الآلوسي، ١٤١٥: ٢٢٤/١٠).

النموذج الرابع:-

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة/١٠٠).

في هذه الآية أيضاً «بل» تكون للإضراب الإنتقالي لأنَّ فيه ترقياً من الأغلظ إلى الأشدّ غلظة، وكأنَّه تعالى أراد تسلية الرسول ﷺ بعد كفر اليهود بما أنزل عليه من الآيات بأنَّ ذلك ليس ببدع منه بل هو عادة سلفهم من نقضهم العهود و المواثيق حالاً بعد حالٍ.

وهذا من أفانين البلاغة وهو أن يظهر المتكلم أنه يوفي حق خصمه في الجدال فلا ينسب له المذمة إلا بتدرج وتدبر قبل الإبطال. و لك أن تجعلها للانتقال من شيء إلى ما هو أقوى منه في ذلك الغرض لأن النبذ قد يكون بمعنى عدم العمل دون الكفر و الأول أظهر (ابن عاشور، ١٤٢٠: ١/ ٦٠٨).

النموذج الخامس:-

في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾» (الزخرف/٥٨). نرى كلمتين ذواتا قرب في المعنى و هما جدلاً و خصمونَ. الجدل في اللغة هو «دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة أو يقصد به تصحيح كلامه و هو الخصومة في الحقيقة» (الجرجاني، ١٩٨٣: ٣٣). و من ذلك يتبين أنَّ الجدل يتضمن في معناه الخصومة، التي تعني في اللغة الجدل (ابن منظور، ١٤١٤: ١٠٥/١١). و قد جاء التعبير القرآني ب «بل» ليضرب منتقلاً إلى المعنى الأشد و الأقوي و هو المبالغة في الخصومة يدلُّ على ذلك مجيء «خصمون» بكسر الصاد و مفردها «خَصِم» وتعني الشديد الخصومة (ابن منظور، ١٤١٤: ١٨١/١٢). فالإضراب الإنتقالي ب «بل» هنا استخدمت لغرض الرقي و الإنتقال من المعنى الشديد إلى المعنى الأشد و في ذلك تدرج في المعنى و الدلالة استثمره النص القرآني ليقرر و يرسخ المعنى المراد في ذهن متلقيه.

كما نشاهد في النماذج المذكورة آنفا من خلال دراستنا، أفادت بل الإضراب الإنتقالي التدريجي من المعنى الشديد إلى المعنى الأشد ومن صورة الفضيعة إلى الأفضع.

جدول (١) الآيات التي استخدمت فيه بل بمعنى الإنتقال

السورة	الآية التي استخدمت فيه بل بمعنى الإنتقال	السورة	الآية التي استخدمت فيه بل بمعنى الإنتقال	السورة	الآية التي استخدمت فيه بل بمعنى الإنتقال
البقرة	١٠٠- ٢٥٩	العنكبوت	٤٩- ٦٣	الواقعة	٦٧
آل عمران	١٥٠- ١٦٩- ١٨٠	الروم	٢٩	الملك	٢١
الأنعام	٢٨- ٤١	لقمان	١١- ٢١ -٢٥	القلم	٢٧
الأعراف	٨١- ١٧٩	السجدة	١٠	المدثر	٥٢- ٥٣
يونس	٣٩	سبأ	٤١	القيامة	٥- ١٤- ٢٠
هود	٢٧	فاطر	١٩	الإنفطار	٩
يوسف	١٨- ٨٣	يس	١٩	المطففين	١٤
الرعد	٣١- ٣٣	الصافات	١٢- ٢٦-٣٠	الانشقاق	٢٢
الحجر	٦٣	ص	٢- ٨	البروج	١٩- ٢١
النحل	٧٥	الزمر	٢٩- ٦٦	الأعلى	١٦

الكهف	٤٨ - ٥٨	الزخرف	٢٢- ٢٩	الفجر	١٧
طه	٦٦	الدخان	٩		
الأنبياء	٢٤-٤٠- ٤٢-٤٤- ٥٦ - ٦٣	الاحقاف	٢٨		
المؤمنون	٥٦-٦٣- ٧٠-٧١- ٨١- ٩٠	الفتح	١١- ١٢		
النور	١١	الحجرات	١٧		
الفرقان	١١- ٤٠-٤٤	ق	٢- ٥- ١٥		
الشعراء	١٦٦	الذاريات	٥٣		
النمل	٣٦-٤٧- ٥٥-٦٠- ٦١- ٦٦	الطور	٣٣- ٣٦		

٣-٢. فاعلية أم في تدرج المعاني

تُعدُّ(أم) بناءً على أقسام الكلمة حرفاً، فتكون بذلك خاليةً من أيّة إرتباطات موقعية للإعراب، كم أنّها لا تدلّ على معنى في ذاتها إلا إذا ارتبطت بعلاقات تركيبية (الأنباري، ١٩٩٩: ٢٢١). فتكون إمّا متّصلة و إمّا منقطعة و يقصد بالإتّصال و الإنقطاع معادلتها للهمزة. يعني ذلك أنّ معادلتها للهمزة يجعلها متصلةً بالكلام الذي قبلها، و عدم معادلتها للهمزة يجعلها منقطعة عن الكلام الذي قبلها (السيرافي، ١٩٧٤: ١٤١/٢).

أما ما يهمنا من النوعين للأم في هذه المقالة فهو النوع الثاني أي أم المنقطعة لما لها طاقات دلالية تؤدي إلى تدرج المعاني و ترقيها في النص عموماً و في النص القرآني خصوصا. و هي التي لا يكون قبلها إحدي الهمزتين. واختُلف في معناها، فقال البصريون: إنّها تقدر بـ «بل» و الهمزة مطلقاً. وقال قوم: إنها تقدر بـ «بل» مطلقاً. و ذكر ابن مالك أن الأكثر أن تدل على الإضراب مع الإستفهام، و قد تدل على الإضراب فقط و لكونها قد تخلو من الإستفهام، دخلت على أدوات الإستفهام، ما عدا الهمزة. نحو ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ (الرعد/ ١٦) (المرادي، ١٩٩٢: ٢٠٥-٢٠٦).

فسنعرض في التالي، النماذج الدالة على هذا القسم من الإضراب أي الإضراب الإنتقالي بـ (أم) مشيرين إلى دلالة الإضراب في تدرج المعنى و ترقيه.

النموذج الأول:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ (الأحقاف/ ٧-٨).

«أَمْ» منقطعة أي بل يقولون افترى القرآن على الله في دعواه أنه كلامه (الطباطبايي، ١٤١٧: ١٨٨/١٨).

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ اضراب عن ذكر تسميتهم إيّاه سحراً إلى ذكر ما هو أشنع منه و إنكار له و تعجيب (فيض كاشاني، ١٤١٥: ١٢/٥).

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ إضراب و انتقال من حكاية شناعتهم السابقة إلى حكاية ما هو أشنع منها و هو الكذب عمدا على اللّه تعالى فإن الكذب خصوصا عليه عزّ و جل متفق على قبحه حتى ترى كل أحد يشمئز من نسبته إليه بخلاف السحر فإنه و إن قبح فليس بهذه المرتبة حتى تكاد تعد معرفته من الأمور المرغوبة، و ما في أَمْ المنقطعة من الهمزة معنى للإنكار التوبيخي المتضمن للتعجب من نسبته إلى الافتراء مع قولهم: هو سحر لعجزهم عنه (الآلوسي، ١٤١٥: ١٦٦/١٣).

نستنتج مما ورد حول هذه الآية من التفاسير، أنَّ أم فيها منقطعةٌ بمعنى بل و قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ اضراب عمّا كانوا يقولون بأنَّ القرآن سحرٌ إلى قولهم بأنّ رسول الله اخترعه و اختلقه. هذا الإضراب لا يبطل قولهم في القرآن بأنّه سحرٌ بل يرتقي شناعتهم تدريجياً و يضرب بأم من أمر شنيع إلى أمر أشنع و هو الإفتراء. فأضرب عن ذكر تسميتهم إياه سحرا إلى ذكر قولهم أن محمدا افتراه و نسج أسلوبه من صنعه و ذلك أشدّ سماجة من قبله فاللّه سبحانه و تعالى جعل أسلوب الإضراب في هذه الآية أداةً لتدرج المعنى.

النموذج الثاني:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (النساء/٥٣-٥٤).

تشير الآيتان إلى الصفات الرزيلة التي يمتلكها اليهود. فبعد ما أنكر أن يكون لهم شيء

من الملك و وصفهم بالبخل انتقل إلى صفة أخرى ذميمة و هي شدة حسدهم لرسول اللّه ﷺ. فأم فيها منقطعة عند الجمهور فذهبوا إلى أنّها بمعنى بل والهمزة على تقدير: بل أيحسدون على معنى الانتقال من توبيخهم بالبخل إلى ما هو شرٌّ منه و هو الحسد كما يقول الآلوسي: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ انتقال عن توبيخهم بالبخل إلى توبيخهم بالحسد الذي هو من أقبح الرذائل المهلكة من اتصف بها دنيا و أخرى، و ذكره بعده من باب الترقي، و أَمْ منقطعة» (الآلوسي، ١٤١٥: ٥٥/٣).

بناءً على ما ذكرنا استخدمت أم في هذه الآية كأسلوب الإضراب الإنتقالي بمعنى أنها لاتبطل ما سبقها من الصفات الرزيلة بل تشتد الصفات الرزيلة تدريجياً من البخل إلى الحسد. قيل: «إن الحسد من إفراط البخل لأن البخل منع النعمة لمشقة بذلها و الحسد تمني زوالها لمشقة نيل صاحبها، فالعمل فيهما على المشقة بنيل النعمة. و قد يتحول الحسد من عقدة نفسية إلى عداوة و كيد و مكر و تآمر» (فضل الله، ١٤١٩: ٣٠٦/٧).

النموذج الثالث:ـ

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (القمر/ ٤٣-٤٦).

ذهب بعض المفسرين إلى أن (أم) في الآيتين (٤٣، ٤٤) منقطعة بمعنى (بل) التي تفيد الإضراب الانتقالي مجتمعة مع الاستفهام تبكيتا وتوبيخا، قال أبو السعود: «أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِإضرابٌ وانتقالٌ من التبكيتِ بما ذُكِرَ إلى التبكيتِ بوجهٍ آخرَ، أيْ: بل ألكم براءةٌ وأمنٌ من تبعاتِ تعملونَ من الكفرِ والمعاصِي وغوائلِهما في الكتبِ السماويةِ فلذلكَ تصرونَ على ما أنتُم عليهِ؟ وقولُه تعالى: أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ إضرابٌ من التبكيتِ المذكورِ إلى وجهٍ آخرَ من التبكيتِ،... أي: بل أيقولونَ واثقينَ بشوكتِهم نحنُ أولُو حزمٍ ورأيٍ أمرُنا مجتمعٌ لا نُرامُ ولا نُضامُ من الأعداءِ لا نُغلبُ» (أبو السعود، د.ت: ١٧٤/٨).

النموذج الرابع

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد/ ٢٤).

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؟ الاستفهام توبيخي أي أ فلا يتفهمون القرآن و يتصفحونه ليروا ما فيه من المواعظ و الزواجر، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات!؟ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ

أَقْفالُها «أم» بمعنى «بل» و هو انتقال من توبيخهم على عدم التدبر إلى توبيخهم على ظلمة القلوب و قسوتها حتى لا تقبل التفكر و التدبر و المعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة كأنها مكبّلة بالأقفال الحديدية فلا ينفذ إليها نور و لا إيمان (صابوني، ١٤٢١: ٣/١٩٦).

وكما نرى في تفسير هذه الآية الكريمة، فقد اشتد توبيخ المشركين تدريجياً. أولاً: ذكر عدم التأمل و التدبر، وهو أمر قبيح انتمي إليهم، ثم اشتد هذا المعنى بواسطة أم التي بمعنى بل و نسب إليهم إغلاق قلوبهم عن معرفة القرآن و الإسلام و كأنَّ علب قلوبهم أقفالاً تمنعهم من الإستدلال. فهذا التدرج في المعنى قد حدث في ظل أم، فلولا هذا الأسلوب أي الإضراب لما حدث هذا الترقي في المعنى في الآية الشريفة.

٣-٣. فاعلية أو في تدرج المعاني

تقدم أن الإضراب معنى يؤدي بعدة أحرف، فله حرف رئيسي هو (بل) و قد يؤدي بـ(أم) المنقطعة و بـ (أو) أيضا جاء في شرح الرضي: «و تجئ (أو) أيضا للإضراب بمعنى(بل)، فلا يكون إذن بعدها إلا الجمل فلا يكون حرف عطف، بل حرف حرف استئناف (الأستر آبادي، ١٣٩٥: ٤/٣٩٦). فمن الحروف التي تفيد معنى الإضراب أو و هي التي تأتي في كلامنا بمعنى بل إذا قصد بها االإضراب الإبطالي الحادث بسبب الخطأ أو النسيان في القول، مثل أن تقول: إقرأ النحوَ أو الصرف. فقد أخطأ المتكلم أو نسي، فأضرب عن الأول، وصَحَّحَ خطأه، فجاءت أو في الجملتين بمعنى بل والإضراب هنا إبطالي؛ لأنه لتصحيح خطأ، أو استدراك لسهو ونسيان، وعادة ما تقع أو في هذا النوع من الإضراب بين مفردين.

هذا النوع من أو التي للإضراب الإبطالي لايوجد في القرآن الكريم، وقد جاءت أو في القرآن الكريم بمعنى بل في مواضع كثيرة لكنها كلها تفيد الإضراب الانتقالي، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

النموذج الأول:

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ (النحل/ ٧٧)

في هذه الآية استخدم القرآن في التعبير عن سرعة وقوع الساعة و مجيئها اسلوب التشبيه وشبّهها بلمح البصر ثم ترقي المعنى بـ أو التي هي بمعنى بل. ولو اختلف اللغويون في تأويل

بل في هذه الآية اختلافا عظيما، فمنهم من جعلها على ما وضعت له من دون تأويل، ومنهم جعلها للشك، ومنهم من جعلها للإبهام على المخاطب، وقال بعضهم إنها للشك المصروف إلى السامع، على سبيل الحكاية عنه. أما ابن عاشور فقد رأى فيها رأيا حسنا، قال: «ولفظ «أو» في أو هُوَ أَقْرَبُ ليس للشك، بل للتمثيل ومجيء الساعة بسرعة من جملة مقدوراته وأو في «أو هُوَ أَقْرَبُ» لِلْإِضْرَابِ الانْتِقَالِيِّ، إِضْرَابًا عَنِ التَّشْبِيهِ الْأَوَّلِ بِأَنَّ الْمُشَبَّهَ أَقْوَى فِي وَجْهِ الشَّبَهِ مِنَ الْمُشَبَّهِ بِهِ، فَالْمُتَكَلِّمُ يُخَيِّلُ لِلسَّامِعِ أَنَّهُ يُرِيدُ تَقْرِيبَ الْمَعْنَى إِلَيْهِ بِطَرِيقِ التَّشْبِيهِ، ثُمَّ يُعْرِضُ عَنِ التَّشْبِيهِ بِأَنَّ الْمُشَبَّهَ أَقْوَى فِي وَجْهِ الشَّبَهِ وَأَنَّهُ لَا يَجِدُ لَهُ شَبِيهًا فَيُصَرِّحُ بِذَلِكَ فَيَحْصُلُ التَّقْرِيبُ ابْتِدَاءً ثُمَّ الْإِعْرَابُ عَنِ الْحَقِيقَةِ ثَانِيًا» (ابن عاشور،١٤٢٠: ٣/١٨٥).

لذلك، فإن أسلوب الإضراب في هذه الآية الكريمة ليس مجرد أسلوب بلا دلالة بل له دلالة خاصة به و هو كما ذكرنا يدلُّ على تدرج المعنى و ترقيه لأن سرعة وقوع الحادث تزداد شدة تدريجياً. و لو لم يتم استخدام هذه الطريقة لما كان بإمكاننا أن نستنتج هذه الدلالة.

النموذج الثاني:-

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم /٩)

لقد اختلف المفسرون في تأويل أو، فمنهم مَن عَدَّها على أصل معناها، قال أبو السعود: «أو أَدْنَى أيْ عَلى تقديركم، كَما في قوله تعالى أو يَزِيدُونَ والمرادُ تمثيلُ ملَكةِ الاتصالِ وتحقيقُ استماعِه لما أُوحيَ إليه بنفيِ البُعدِ الملبس» (أبو السعود، د.ت: ٨/١٥٥). ومنهم قال أنها بمعنى بل ومنهم من قال بغير ذلك، نقل الشوكاني عن الزجاج: «أي: فيما تقدّرون أنتم، والله سبحانه عالم بمقادير الأشياء، ولكنه يخاطبنا على ما جرت به عادة المخاطبة فيما بيننا، وقيل: أو بمعنى الواو، أي: وأدنى، وقيل: بمعنى بل أي: بل أدنى» (الشوكاني، ١٤١٤: ٥/١٢٧).

و إن إختلف المفسرون في تأويل أو لكنّه جديرٌ بالذكر بما أن التعبير القرآني هنا يعبِّر عن حقيقة لا يمكن الشك بها أو إنكارها، و الإضراب بـ (أو) وظّف للمخاطب غير المنكر الذي لا يتطرق الشك أو الإحتمال إلى قلبه و عقله فيقوّي مجيء أو بدلا من بل.

لقد أشارت هذه الآية إلى مدي القرب بين رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام في حالة تجلّي

جبريل عليه السلام في صورته الحقيقية له و ضمّه إلى نفسه و اقترب منه. كما نلاحظ ابتدأ بالمعنى الأقل شدة(قاب قوسين) ثم انتقل بواسطة الإضراب الإنتقالي التدريجي إلى المعنى الأقوي و الأشد(أدني) و اتخذ من الرقي و التدرج في الدلالة بغية للتأثير الأفضل في المتلقي. و كلما كان التعبير عن معنى ما تدريجيا زاد تأثيره على نفس المتلقي.

النموذج الثالث:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة/٧٤).

لقد استخدم في هذه الآية أو بمعنى بل للإضراب الإنتقالي لا الإضراب الإبطالي لأنّ هذا الكلام مقول الله سبحانه و تعالى. شبّه قلوب الكفار بالحجارة في القساوة و لم يكتف بذلك لشدة قساوتهم نتيجة لتوغلهم في الكفر فأضرب عن الحجارة إلى أشد منها بـ(أو). فنري ترقي المعنى و تدرجه في هذه الآية بأستخدام أسلوب الإضراب واضحا. ويؤيد قولنا في أو قول هواري في تفسيره حيث يقول: «قوله: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أو أَشَدُّ قَسْوَةً: أو في هذا الموضع بل، أي: بل هي أشدّ قسوة. وهو كقوله: ﴿وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات/ ١٤٧) أى: بل يزيدون (هواري، ١٤٢٦: ١/١١٦).

النموذج الرابع:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ (البقرة / ٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذِكْرًا﴾، دعوة إلى ذكر الله والبلاغ فيه بأن يذكره الناسك كذكره آباءه وأشد منه لأن نعمته في حقه وهي نعمة الهداية كما ذكره بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أعظم من حق آبائه عليه، وقد قيل: إن العرب كانت في الجاهلية إذا فرغت من الحج مكثت حينا في منى فكانوا يتفاخرون بالآباء بالنظم و النثر فبدله الله تعالى من ذكره كذكرهم أو أشد من ذكرهم، و أو في قوله أو أَشَدَّ ذِكْراً، للإضراب فتفيد معنى بل، و قد وصف الذكر بالشدة و هو أمر يقبل الشدة في الكيفية

كما يقبل الكثرة في الكمية قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (الأحزاب/ ٤١)، (الطباطبايي،١٤١٧: ٢/٨٠).

فبعد ما أمرهم الله تعالى أن يذكروه بالعبادة و الدعاء كما يذكرون آبائهم أضرب عنه و انتقل إلى كلام غيره، لأنّ مفاخر آبائهم مهما كثرت لا ينفعهم ذكرها، و مهما أعطوا من صفات وأموال فهي قليلة بالنسبة لعطاء الله، أما صفات الكمال لله عزَّ وجلَّ فهي غير متناهية، وجوده لا يُحد، لذا يجب عليهم أن يشتغلو بذكر الله أكثر من ذكر آبائهم لأنّه هو المستحق للعبادة و الشكر و الثناء. و يقول القفال: و مجاز اللغة في مثل هذا معروف، يقول الرجل لغيره، افعل هذا إلى شهر أو أسرع منه، لايريد به التشكيك، و إنما يريد به النقل عن الأول إلى ما هو أقرب منه (اليماني، ١٩٩٠: ٢٤٦).

ما يمكن استنتاجه من الأمثلة المذكورة هو أن هناك علاقة عميقة بين القضايا النحوية والقضايا الدلالية والبلاغية. و هذه الصلة وطيدة مكينة بين البلاغة و النحو فالبلاغة و ثمارها نتيجة طبعية لإقامة قانون النحو و تطبيق قاعدته، فما النظم في دقائقه إلا نحو معلل في جملته (الخنين،١٩٩٦: ٦٠٢). فتعليل الظواهر النحوية و التنقير عن أسرارها يفضي إلى نكات بلاغية لطيفة و أسرار بيانية دقيقة.

الخاتمة:

يستفاد مما سبق أنّ عملية إقناع المخاطب من أهم الأغراض التي استخدمت القرآن الكريم استراتجيات مختلفة للوصول إليه و من تلك الإستراتجيات هو التدرج الذي له فاعلية هامة في المجالات المتعددة منها التدرج في المعنى و ترقيه ليكون له الأثر الكبير في متلقيه. و قد خلص البحث إلى أنَّ أسلوب الإضراب يعتبر من أهم الوسائل التي استخدمه القرآن لتدرج المعنى والإضراب بنوعيها الإبطالي و الإنتقالي موجودٌ في القرآن إلا أنّ الإبطال الوارد في القرآن ليس عن غلط أو نسيان بل هو لإبطال أقوال الكفرة. ألفينا الإضراب الإنتقالي وروده في القرآن أكثر من ورود الإضراب الإبطالي. و الذي له دورٌ بنّاء في ترقي المعنى و تدرجه هو الإضراب الإنتقالي لأنّه لا يبطل ماقبل أحرف الإضراب بل ينتقله إليما بعده و يشتد المعنى به تدريجياً لكي يؤثر على المتلقين. و لمس البحث بأنَّ القرآن الكريم

استثمر أحرف، بل، أم و أو كآليات الإضراب في التعبير القرآني بحسب إقتضاء الآيات و لكل منها دلالة خاصة بها. و قد الفينا أنّ حرف بل توحي دلالة الإضراب الإنتقالي التدريجي في اثنين و تسعين موضعا في القرآن و استخدمت كثيراً ما في توبيخ الكافرين، و أيضاً بدا لنا أنّ أم المنقطعة في استخدامها كالإضراب الإنتقالي حقق تشديد المعنى تدريجيا من الشنيع إلى الأشنع كثيراً ما استعملت في توبيخ المنكرين و تقبيحهم. و أمّا بالنسبة إلى أو فقد وجدنا أنّ التعبير القرآني خاطب بها في معظم ورودها المؤمنين و يزداد المعنى بها تدريجيا و يشتد من الشديد إلى الأشد و من الأدنى إلى الأعلى. فبالنسبة إلى الأسئلة البحث نستطيع أن ندعي أنّ الإضراب له فاعلية بارزة في تدرج المعنى.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الآلوسي، محمد،(١٤١٥هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، تحقيق، علي‌عبدالباري عطية، الطبعة١، بيروت، دارالكتب العلمية.
- أبو السعود، محمد بن محمد، (د.ت)، إرشاد العقل السليم إلي‌مزايا القرآن، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- ابن فارس، احمد بن فارس، (١٤٠٤هـ)، معجم مقاييس اللغة، المحقق، هارون عبدالسلام محمد، قم، مكتب الاعلام الاسلامي.
- ابن قتيبة، (١٩٧٣م)، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: أحمد صقر، ط٢، بيروت، دار التراث.
- ابن‌عاشور، محمدطاهر، (١٤٢٠هـ)، تفسير التحرير و التنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، بيروت، مؤسسة التاريخ العربي.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، (١٤١٤هـ)، لسان العرب، ط٣، بيروت، دار صادر.
- الأسترآبادي، محمد، (١٣٩٥هـ)، شرح الرضي على الكافية، المحقق، يوسف حسن عمر، تهران، منشورات مؤسسة الصادق.
- آل عرعور، عدنان، (٢٠٠٥م)، منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر، الطبعة١، الناشر، جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة.
- الأنباري، أبو البركات؛ الأنصاري عبدالرحمن بن محّمد، (١٩٩٩م)، أسرار العربيّة، دار الأرقم بن أبي الأرقم.
- التفتازاني، سعد الدين، (١٩٩٢م)، شروح التخليص، ط٤، بيروت، دار هادي.

- الثقفي، سعاد فريح، (٢٠٠٣م)، المصطلح النقدي و البلاغي عند ابن البناء، رسالة الماجيستر، مكة، جامعة أم القري.
- الجرجاني، علي‌بن محمد، (١٩٨٣م)، التعريفات، ضبطه جماعةٌ من العلماء بإشراف الناشر، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الجمل العجيلي،سليمان بن عمر، (١٩٩٦م)، الفتوحات الإلهية، ط، بيروت، دار الكتب العلمية.
- حبنكة الميداني،عبد الرحمن حسن، (١٩٩٦م)، البلاغة العربية، ط١، دمشق، دار القلم.
- الخنين، ناصر بن عبد الرحمن، (١٩٩٦م)، النظم القرآني في آيات الجهاد، الطبعة ١، الرياض،مكتبة التوبة.
- الزمخشرى، محمود بن عمر، (١٤٠٧هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل فى وجوه التأويل، المصحح، حسين احمد، مصطفى، ط٣، بيروت، دار الكتاب العربي.
- السيرافي، يوسف بن أبي سعيد، (١٩٧٤م)، شرح أبيات سيبويه، تحقيق، محمد على الريح هاشم، القاهرة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- الشوكاني، محمد، (١٤١٤هـ)، فتح القدير، ط١، دمشق، دار ابن كثير.
- الصابوني، محمدعلي، (١٤٢١هـ)، صفوة التفاسير، ط١، بيروت،دار الفكر.
- الطباطبايي، محمد حسين، (١٤١٧هـ)، الميزان في تفسير القرآن، ط٥، قم، انتشارات جامعه مدرسين حوزه علميه.
- عباس، حسن، (د.ت)، النحو الوافي، ط٥، القاهرة، دارالمعارف.
- عبدالرحمن، منصور، (١٩٨٠م)، مصادر التفكير النقدي و البلاغي عند حازم القرطاجني، القاهرة، مكتبة الأنكلو المصرية.
- الفراء، أبو زكريا، (د.ت)، معاني‌القرآن، القاهرة، دار المصرية للتأليف و الترجمة.
- فضل الله، محمدحسن، (١٤١٩هـ)، تفسير من وحي القرآن، ط٢، بيروت، دارالملاك للطباعة و النشر.
- فيض كاشانى، محمدبن شاه مرتضى، (١٤١٥هـ)، تفسير الصافي، ط٢، تهران، مكتبة الصدر.
- المطلق، إبراهيم بن عبد الله، (١٤١٧هـ)، التدرج في دعوة النبي، الطبعة الأولى، الناشر، وزارة الشئون الإسلامية و الأوقاف و الدعوة و الإرشاد.
- المرادي، أبو محمد، (١٩٩٢م)، الجني الداني فيحروف المعاني، تحقيق، فخر الدين قباوة، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.
- محي الدين، درويش، (١٤١٥هـ)، اعراب القرآن الكريم و بيانه، ط٤، سوريه-حمص، الإرشاد.
- المظهري، محمد ثناء الله، (١٤١٢هـ)، التفسير المظهري، ط١، پاكستان، المكتبة الرشدية.
- الهواري، هود بن محكم، (١٤٢٦هـ)، تفسير كتاب الله العزيز، الجزائر، دار البصائر.
- اليماني، إنجا إبراهيم يحيي، (١٩٩٠م)، أساليب الإضراب و الإستدراك في القرآن الكريم، رسالة الماجيستر، جامعة أم القري، كلية اللغة العربية.